

على هامش التعليم الإلزامي
في ظلال الهرم

بقلم الأستاذ زكي المهندي

مدرس التربية بدار العلوم

« لا يسعني بكل أسف أن أقبل هذه المعاذير ، فيجب أن يكون لك مقال في الجزء التالي . » تلك هي الكلمة الهادئة الرصينة الحازمة ، التي أجبني بها صديقي رئيس التحرير ، حين ضرّعتُ إليه أن يعفني من الكتابة في هذا الجزء التالي من الصحيفة . وكـم قدمت في سبيل ذلك من معاذير ، وأثمت من حجج ، ودعوت من شهود ، ولقّنتُ من حوادث ونوازل ، فلم أدع مرضاً من الأمراض إلا ألحقته بنفسى وولدى ، ولم أترك مُلِمّة من الملهمات إلا أنزلتها بالأقارب والأبعد من أهلى وأصهارى ، ثم جهّدت في شيء من الدهاء أن أرشوّ صديقي الرئيس باستعدادى للقيام بما يتطلبه هذا الجزء من أعمال إضافية .

حاولتُ هذا كله ، وطمعتُ فيه ، واحتلت له ، ولكنى عبثاً حاولت ، ومحالاً رجوت ، فقد ظهر أن صديقي رئيس التحرير لا تقبل عنده الشفاعة ، ولا تنجع فيه الرشوة .

إن له نظرة ثاقبة ، يكاد يستشف بها ما وراء الحجب ، وحساً دقيقاً ، يوشك أن ينفذ به إلى قرارة النفس ، ومستودع السر ؛ هذا إلى عزم مضّاء يتحطم حياله أقوى المعاذير ، ويقضى من دونه كل تأثير .

وإذا فلا بد أن أكتب ، ولا مفرّ من أن يكون لى في هذا العدد مقال ، ولكن ماذا أكتب وأى الموضوعات أختار ؟ هذا موطن الحيرة والقلق . لقد كتبت في قضية الأطفال يوم كان للأطفال قضية ، وأحسبني قد أضجرت نفوس القراء بما فيه كفاية ، فليس لى في هذا الدفاع من مزيد ، ثم أية قضية تلك التي تحوم المدافعة فيها تسعة أشهر أو تزيد ؟ لا ، لن أكتب كلمة واحدة في قضية

الأطفال . هذا عهدٌ على لقراء الصحيفة ، فليطمئنوا .
 لأمناس إذاً من أن أكتب في موضوع جديد ، ولكن فيم أكتب ؟ حقا
 إن اختيار الموضوع أشق من الكتابة فيه . فما للخيال في هذه المرة يعُتقني ، والقلم
 يستعصي عليّ ! الكتب مبعثرة حولي ، مشورة بين يدي ، ولكني أكره أن
 أحشو مقالاً بما يُسَطَّر في الكتب ، وبما يستطيع الناس جميعاً أن يقرؤوه في غير
 الصحيفة ، هذا إلى أني لست بطبعي جماعاً للآراء ، فأنا لا أحسن الاستعارة ،
 ولا أسينغ الرواية ، ولا أطبق النقل ، ولا أصبر على الترجمة . أنقيصة هذه أم
 فضيلة ؟ فسرها بما شئت ، وكيف شئت ، ولكنه طبعي الذي فطرت عليه والذي
 لا أستطيع أنا ولا أنت أن نغير منه ، أو نبذل فيه . عجباً ! عشر ليال تمر عجلى
 مسرعات ولماً أهتدي إلى موضوع مقال ! كم استلهمت شعوري ، واستوحيت
 خيالي ، ولكن الشعور راكد ، والخيال مجذب . هأنذا أعتصر الذهن فلا يُجدي ،
 وأندح زناده فما يُوري ، وقديما تحدث علماء الأدب عن شيطان الشعر ، فقالوا
 إن لكل شاعر شيطانا يلهمه المعاني ، ويُجزى بنانه بالقوافي ، وإن صح ما يقولون
 فما أهنا الشعراء بشيطانهم ! من لي بمثل هذا الشيطان النشط يستجيب لندائي كلما
 ألح في الطالب صديق رئيس التحرير ، وأبى أن يقبل مني المعاذير .

آه ! لقد وجدتها وجدتها . هذا محضر الجلسة ممتعة من جلسات « جماعة
 الأصدقاء » ، تناول الحديث حول فكرة التعليم الإلزامي في خطبتين شائقتين ،
 فلم لا أجعل هذا المحضر موضوع مقال ؟ ثم هو محضر فياض خصب ، يستنفد
 عدة صفحات من الصحيفة ، فماذا علي لو نشرته برمته ، وكفيت نفسي مؤونة
 الشرح والتعليق ؟ فليكن .

طبقاً لقرار الجمعية في الجلسة السابقة عقدت جماعة الأصدقاء جلستها الرابعة
 في الأهرام في اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٣٤ م .

وما انتصفت الساعة الرابعة حتى اكتمل عقد الجماعة ، لم يتخلف منهم سوى
 حضرة صاحب العزة محمد فهمي بك ، الذي اعتذر عن عدم حضور هذه الجلسة
 بعذر قاهر .

وفي تمام الساعة الرابعة قرئ على الأعضاء محضر الجلسة السابقة ، ثم أخذوا في عملية الاقتراع لتعيين العضو الذي يختار موضوع الحديث ، وبدأ فيه الكلام ، فأصابت القرعة حضرة صاحب السعادة الشيخ الجليل محمد راغب باشا ، فهض سعادته ، وألقى الخطبة الآتية :

أصدقائي :

لقد قضى نظام جماعتكم أن تختاروا من بينكم واحدا يقترح موضوع الحديث ، وبدأ فيه القول ؛ ولا ريب عندي ، أنكم تدركون أن تبعة الاختيار ثقيلة ، والبعض بالحديث تكليف شاق ، والمرء في هذا الموقف خليق أن تدركه الحيرة ، ويتولاه الشك والقلق ، إذ يرى أن المسائل الحيوية التي يعنى الأمة أمرها في الوقت الحاضر كثيرة متنوعة ، وهو لا يدري ما يأخذ منها وما يدع ، فهناك أمور وأحداث تشغل أذهاننا جميعاً في هذا الطور الجديد ، الذي ندرج فيه ، ونحن خلقاء أن نقف منها موقف الذي يقول :

تكاثرت الظباء على خراش فلا يدري خراش ما يصيد
غير أنني لحسن الحظ قد أصابني القرعة في وقت تفيض فيه الصحف ، وتشعب الآراء ، ويكثر اللجاج ، ويحتمد الخصام فيما أسماه الكتاب : مشكلة التعليم الإلزامي . هذه هي المسألة العظيمة الشأن والخطر ، التي أصبحت حديث المجتمعات ، وسمر المنتديات في هذه الأيام ، وما أتم أولاء تروون اللجان تجمع ، والمؤتمرات تعقد ، والميزانيات تقرر ، والضرائب تجبى ، وكلما كثر البحث ، واشتد الجدل ، أظلم وجه الحق ، وتضاعفت الشبهات ، وعميت الغاية ، وتعمدت السبل . ولكن العجيب في هذا كله أننا نحن الذين صنعنا هذا المشكل بأيدينا ، ثم أخذنا نعمل الحيلة في حله ، وتلصص صواب الرأي فيه ، فكنا بذلك أشبه الملاح الأحق ، الذي عمّد إلى زورقه نفيره ، ليرى كيف يجرى الماء في داخله ، فلما اشتد عليه الأمر ، تولاه الذعر والجزع ، فحاول أن يصلح ما أفسده ، ولكن بعد أن اتسع الحرق على الرافع . ذلك مثلنا - أيها السادة - فقد أينا إلا أن ننسج من أوهامنا مسألة ، ونحوك من أخيلتنا مشكلة ، من غير أن يكون ثمة حاجة تقضيها ، أو حاجز

قوى يحفزنا إليها. انتزعنا مسألة التعليم الإلزامى من العدم. ثم وضعناها بين أيدينا، نقلب الطرف في جوانبها ونعصر الذهن في كشف معمياتها. فلما أعجزتنا أخذنا نصيح ونولول، ونبكي ونستبكي، فإذا قدر لكم أن تتساموا عن الغاية من هذا النوع من التعليم أيا كان نظامه وخططه ومناهجه، وإذا قدر لكم أن تجدوا لسؤالكم هذا مجيبا، سمعتم كلاما كله هراء وهذر ولغو.

صدقوني — أيها الأصدقاء — إذا قلت إن هذا الشغف الظاهر، والحماسة المتأججة في صدورنا لهذا النوع من التعليم، ليست إلا مظهرا من مظاهر تلك العاطفة الجالحة القوية، التي سادت نفوسنا في السنوات الأخيرة، تلك العاطفة التي دفعتنا إلى تقديس الأمم الأوربية تقديسا كان له أثره في أفكارنا وأعمالنا وسلوكنا، لقد خيل إلينا أن حياة أوربا هي المثال الأعلى، الذي يجب أن نحتذيه ونهتدى به، فهم يفكرون على أسلوب خاص، فيجب أن نحاكيهم وهم يؤثرون نوعا من الثياب، فيجب أن نتزيا بأزيائهم، وهم يفضلون ألوانا من الماء كل والمشارب، فيجب أن يكون طعامنا مثل طعامهم، ثم هم يعنون بتعليم فلاحهم وصناعهم، فكذلك يجب أن نفعل بفلاحينا وصناعنا، تلك هي العاطفة التي استهوت قلوبنا، وملكت علينا نفوسنا، وهي التي تترامى لنا اليوم في صورة خادعة فتانة، فتحفزنا إلى استحداث هذا النوع من التعليم، ولا ريب عندي أنكم — أيها الأصدقاء — ستلقون حديثي اليوم في شيء غير قليل من الدهش، بل الجزع، فستقولون: «يا الله! من ذا الذي تبلغ به الجرأة في القرن العشرين أن يقوم بين طائفة من ذوى الثقافة العالية، يحاول أن يجعل فكرة التعليم الإلزامى موضع نقاش أو جدل؟ أليس تعليم الشعب غنيه وفقيره، فلاحه وصانعه؛ فرضا وطنيا مقدسا؟ أليس التعليم في ذاته من أقوم الوسائل لتوفير السعادة للأفراد والجماعات؟ ومن ذا الذي لا يود أن تمتد به الحياة ليرى فلاحينا سائرين خلف ماشيتهم في الصباح، وكل منهم يتأبط كتابا، أو يمسك بصحيفة؟ ألا إن هذا هو الأمل المنشود، وإن مصر المتعلبة المثقفة لى الفردوس المفقود». أجل ستقولون هذا — أيها السادة — وسيهمس بعضكم بأكثر منه. غير أنى أؤكد

لكم أن كثيرا مما تقولون وما تهمسون به ليس إلا مظهرا آخر لتلك العاطفة الجامحة القوية ، التي تعمى اليوم أبصارنا عما في هذا النوع من التعليم ، من آثار وبيلة ، وعواقب وخيمة .

وأنا لا أحب هنا أن أتناول فكرة التعليم الإلزامي في جملة وعمومه ، بل أوثر أن أترك لكم المَدُن في صحتها وجليتها وضوضائها . سأترك لكم المدن بعيوبها وشروها ومفاسدها ، فهذا رجل المدينة أمامكم ، فاصنعوا به ما شئتم ، وزيدوه بالتعليم تعسا وفاقة إن أردتم ، أطفئوا فيه غليل تلك العاطفة الجائشة في صدوركم ، أشبعوا في حياته هذه الشهوة المتأججة في نفوسكم ، فليكن رجل المدينة كما شئتم أن يكون ، فما أنا بلاءكم فيه ، أو محاسبكم عليه .

ولكن يشق على - وإيم الحق - أن أراكم تتجاوزون بهذا التعليم حدود المدينة إلى تلك القرى الهادئة الوادعة المطمئنة . تنتزعون منها ذلك المخلوق الحر الكريم ، تُلْقُوْا به في حجرات مظلمة ضيقة ، وبين يدي معلم ساذج يقتل فيه خيرا ما وهبت له الطبيعة من صفات نبيلة ، وهمم شماء ، وخلال كريمة ، وكل هذا في سبيل ثقافة (استغفر الله بل في سبيل أشتات وقشور من المعلومات) نافهة ناقصة مضطربة ، لا تجديه نفعا ، ولا تصلح من حياته أمرا .

لقد افترضتم - أيها السادة - أن تعليم الفلاحين يجلب لهم السعادة ، ويدر عليهم أخلاف الرزق ، كما افترضتم كذلك أن هذا التعليم يكفل للأمة ما تصبو إليه من مجد ورفعة ، وأراكم والله قد أخطأتم في الأولى خطأ لا يعدله إلا خطؤكم في الأخرى ، فأية سعادة تلك التي يجلبها هذا التعليم للفلاحين أو الصناع ؟ وهل السعادة إلا انسجام واتساق بين المرء وبيئته ؟ أو ما تحدث حكماؤكم وفلاسفتكم عن السعادة بأنها القناعة بما قسم ، والرضا عما وقع ، وأن المرء لا يزال بخير ما قنع ، فإن طمع في منزلة فوق المنزلة التي هيأها له القدر ، كان خليقا بالشقاء حريا بالتعس ؟ أو ليست هذه الحكيم المأثورة التي ورثناها عن الآباء والأجداد ؟ وهل كان شاعركم عابثا أو هازلا حين يقول :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ناشدتكم الله - أيها الأصدقاء - هل رأيتم فيما رأيتم رجلا أرضى بما لديه ، وأقنع بما عنده ، وأهنأ بما قسم له ، من هذا المخلوق الصابر الوداع ؟ هل عرفتم - فيما عرفتم - نفسا أكثر اطمئنانا ، وأشد ثقة بالله وبقضائه من هذه النفس البريئة النقية ، التي تستكن تحت تلك الأطار البالية ؟ هذا هو فلاح مصر بين أيديكم ، وبرأى منكم ، فتشوا في ثوبه الخلق ، فهل ترون إلا جلدا لا يعتره ملال ، وصبرا لا يتطرق إليه وهن ! وبقينا لا نعتوره الشبهات والريب ، وإيماننا صادقا لا نزعزعه المطامع والأهواء ؟ هذا هو فلاح مصر كما صنعتها الطبيعة ، وكما يجب أن يكون كل فلاح ، بل كما يجب أن يكون كل رجل ، فماذا دهاكم من عيوبه وأخلاقه ، حتى تحيثونا اليوم تُحدثوننا عن سعادته وهناءته ؟ الحق أن تعليمكم الفلاح - أيها السادة - يمكن أن يجلب كل شيء إلا تلك السعادة الوهمية التي تملئون بها صحفكم ولجانكم ومجالسكم .

إنكم لتأبئون إلا أن تصنعوا الفلاح بأيديكم ، ولكن هل تدبرتم الأمر ، ورويتم في العاقبة ؟ تقولون : إن تعليم الفلاح يزيد في معارفه ، ويوسع من خياله ويغنى من وجدانه ، ويرهف من عقله ، فليكن هذا كما تريدون أن يكون ، ولكن هل دريتم أنكم إلى جانب هذا تخلقون فيه المطامع ، وتوقظون فيه النزعات والشهوات ، وتزيدون في تكاليف حياته ، وتفسدون عليه ذلك الجو الروحي البديع الذي ينعم الآن به ، وتُلقون به في ذلك اليم المضطرب الأمواج ، المتراعى الأطراف ؟

ثم خبروني - يا سادة - ماذا جئتم من تعليم غير الفلاحين سوى تلك الأخيلة الشاردة ، والعواطف الجائحة ، والنفوس الضعيفة القليقة ، التي أفقدها التعليم كل صبر وجلد على مقاومة تصارييف الحياة ، وأحداث الدهر ، حتى أصبحت لا تبغى بغير المناصب الحكومية بدلا ، أو تطلب عن غير العمل المريح عوضا ؟ اذهبوا وأصلحوا أولا نظم مدارسكم ، وأساليب ثقافتكم ، في غير التعليم الإلزامي ، قبل أن تتحدثوا عن تعليم الفلاح ، وقبل أن تعرضوه لتلك التجاريف العسة التي ما زلتم تعرضون لها أبناءنا وبناتنا في مراحل التعليم الأخرى ، فاذا كنتم إلى الآن

عاجزين - كما يبدو لنا - عن تعليم غير الفلاح ، فأتمم والله عن تعليم الفلاح أعجز لا ، لا ، اتركوا رجل الطبيعة كما أرادت الطبيعة أن يكون . هذا هو الواجب المقدس الذى تفرضه عليكم الوطنية . اتركوا الفلاح للطبيعة ، فهى أهدي له ، وأحتى عليه ، دعوه يعالج بنفسه شئون حياته الساذجة ، ويحتمل ثمرات هذا العلاج من خير أو شر . كتاب الطبيعة مفتوح أبدا أمامه . فدعوه يقرأ هذا الكتاب الذى لا يكذبه ولا يخدعه .

ماذا تنشدون فى الرجل غير ذى الخلق القويم ، والإرادة الصادقة ، والقلب البرى الطاهر ، والضمير النقي ، والسلوك الحسن ؛ فثقوا معى بأن هذه الصفات موفورة فى الفلاح لا يعوزكم أن تشهدوها بأعينكم وتلمسوها بأيديكم ، ولكن فى المواطن التى لا يغشاها المدرسون ، ولا المفتشون ، ولا الأدباء والمفكرون . لا أسألكم - أيها السادة - سوى أن توازنوا بين هذا الفلاح المائل أمامكم ، وذلك الفلاح الجديد ، الذى تحاولون اليوم أن تصنعوه بأيديكم ، وازنوا وانظروا كم فروق بين الرجاين . إني مؤمن أشد الايمان بأن فلاحكم الجديد سيكون أسوأ من عرفت أرض مصر من الفلاحين ، فى تاريخها الطويل . وإني ليعرونى الأسى ، ويتولانى الحزن والخوف ، كلما تصورت ذلك الفلاح الذى ستشهده مصر بعد بضع عشرات من السنين إني لا أخال فلاح المستقبل رجلا غضوبا ملولا برما بكل شيء ، متدمرا من كل شيء . يُخلد إلى الراحة ، فلا يبكر إلى حقله . ولا يعنى كل العناية بماشيته ، يترقب كل فرصة لينصرف عن أرضه وعمله ، إلى صحيفة يتبع أخبارها أو رواية يتقصى غرائبها ، يشعر بأنه مهيض الجناح ، أو مهضوم الحق ، فلا يفتأ يطلب مزيد الأجر ، فإن عز عليه ذلك أقام الدنيا وأقعددها ، وقد ينزع إلى الخصام ، ويلجأ إلى العنف ، فإن أياسه ذلك كف عن العمل ، وهجر بلده إلى حيث يجد ما يسد مطامعه ، ويرضى شهواته ، هذا هو فلاحكم الجديد كما تصورته . ولا ريب عندى أن الواقع سيكون أكثر مما ظننت ، وقوق ما تصورت . أتلك هى السعادة التى تحاولون أن توفروها للفلاح !

فإنى لا أتردد فى أن أعترف معكم بأن حياة فلاحينا فى أشد الحاجة إلى إصلاح

يوفر لهم السعادة ، ويحقق لهم طيب العيش . ولكنى أؤكد لكم أن وزارة المعارف هي آخر ما تحتاج إليه قرانا وأهلونا . وإنما مصلحة الصحة ، وقسم البلديات ، ووزارة الزراعة ، هي التي يجب أن تلتقى عليها تبعة الإصلاح ، فأقيموا للفلاح المشافى ، وأكثروا الإسالة ، عالجوا مشربه الرنق مما يرتع به من جراثيم وحشرات ، أبعدوا عنه البرك ، ارموا له المستنقعات ، شقوا له الطرقات ، شيدوا له المساكن الصالحة ، ثم أرشدوه إرشادا عمليا في زراعته ، وفي تربية ماشيته وطيره .

وإذا فعلتم هذا تكونون قد أنصفتم الفلاح ، ووفرتم له حياة طيبة وعيشا رغدا . وإن أعجب العجب (فيما ترضونه للتعليم الإلزامي من غايات) ادعواكم بأن تعلم الفلاح سيرقى بالآمة صُعدا إلى المجد ، ويسير بها قُدُما إلى العظمة والشرف ، ويجرى بها طلقا في سبيل السعادة والطمأنينة . ولكنى أراكم هنا أيضا تتحدثون عن سعادة المجتمع ، وهناءة الآمة ، بأسلوب خادع فتان ، ظاهره فيه الرحمة ، وباطنه من قبلة العذاب . فهل تصورتم ما تكون عليه حال المجتمع المصرى بعد عشرات السنين إذا قدر لكم أن تستمروا فيما أخذتم فيه من تعليم الفلاحين . آه ، لو تستطيعون أن تقهجموا جوف المستقبل بأبصاركم وبصائركم إذا لأدر كنتم ما يحمله لهذه الآمة الهادئة الوادعة من أرزاء ونكبات ، ويومئذ تعرفون أية حال من القوضى والاضطراب والفرع تعانيه مصر وأهل مصر .

انظروا — أيها السادة — هؤلاء الفلاحون المتعلمون الغاضبون قد ثاروا على أصحاب الأراضي ، وأقبلوا يحملون قؤوسهم ومناجلهم ، هؤلاء الفلاحون المتعلمون يهجرون حقوقهم ودوابهم استمعوا إليهم إنهم يطالبون بزيادة الأجور ، ونقص ساعات العمل ، ويقررون الاضراب حتى تجاب مطالبهم .

وتلك هي نقابات الفلاحين تؤلف ، ومؤتمرات الفلاحين تعقد ، هاهي ذى الحكومة تدخل في الأمر وتواجه أسوأ مشكلة اجتماعية عرقها حكومة مصرية . ثم هذه هي المجاعة والفقر والفاقة تهدد التجار والصناع والموظفين من إضراب الفلاحين ، وهذا المجتمع المصرى صغيره وكبيره غنيه وفقيره خاصته وعامته يعاني من ثورة الفلاحين ما يعاني ويكابد منها ما يكابد .

هذه الصورة البشعة التي تحاولون أن تدفعوا إليها مصر بأيديكم وباختياركم ، ثم تجميئون اليوم فتحدثون عن العظمة والمجد والشرف والسعادة .

ان التاريخ — أيها السادة — يضرب لكم أبلغ الأمثال ، فسلوه يحدثكم بما يعرفه كل إنسان من أن تلك المبادئ الهادمة الفتاكة من بلشفية واشتراكية . إنما وجدت منبتها الصالح ومرتعها الخصب في تلك البيئات التي ارتفع فيها مستوى المعيشة لطبقات العمال والصناع والفلاحين ، مما أفضى إليه التعليم . سلوا التاريخ يقص عليكم أن هذه الزلازل والعواصف الاجتماعية في العالم ما كانت لتجد سبيلها إلى النفوس لو ظلت هذه الطبقات العاملة قانعة بحياتها ناعمة بجهالتها .

ولا أريد أن أختم كلمتي هذه من غير أن أعود فأكرر لكم — أيها الأصدقاء — إنه لا يعنيني موقع حديثي من قلوبكم ، ومنزلته من نفوسكم ، وإنما الذي أحب أن تذكروه دائماً هو أن هذا الصوت الذي ارتفع اليوم بينكم ، هو صوت فلاح وابن فلاح ، هو صوت رجل يعاشر الفلاحين ، ويقاسمهم حياتهم ، ويعرف ما ينفعهم وما يضرهم . اذكروا هذا واذكروا فوق هذا أن طائفة كبيرة من ذوى الأراضي الواسعة ، ممن خبروا الفلاحين ، وبلّوا حياتهم ، يشاطرونني رأياً ، ويذهبون مذهبي ، وحسبي هنا أن أكون قد نهيتكم إلى ما يكتنه المستقبل لهذه الأمة من نكبات لا يعلم إلا الله مدى عواقبها وآثارها ، فهأنذا قد أندرتم ، وقد أعذر من أنذر .

ثم قام على إثر ذلك الشاب النابه أحمد لطفي بك ، ورد على خطبة سعادة الباشا بالكلمة الآتية :

ربّاه ! ما للأرض ثابتة لا تميد وتضطرب ؟ وما للهرم راسخاً لا يميل ويتحطم ؟ وما لأبى الهول يرمقنا صامتا لا يتكلم ؟ وما للنيل يجري رفيقاً لا يفيض ويطنّ ؟ هذه معالم الخلود حولنا تفتخر الدهر بما شهدت من دول ، ورأت من أقوام وأحداث ، وعرفت من شرائع وقوانين ومذاهب وآراء ، فليت شعري هل رأت كالיום فيما رأت ، وهل سمعت كهذا الصوت فيما سمعت ؟
ايه بناء الأهرام ، ايه فراغة مصر ، وسادة الشعوب ، وقادة الملوك ، ألا هبوا

من مراقدكم وانفضوا غبار الموت الأبدي عن أجفانكم، هُبُّوا يا سادة، وأرهفوا من أسماعكم وأطلقوا ألسنتكم. حدثونا ولو ساعة من نهار: ماذا صنعتُم بمصر، وماذا صنعت مصر بكم؟ خبرونا عما استحدثتم في عهودكم السحيقة من نظم ومبادئ في هذا البلد الأمين الخالد.

نُصُّوا علينا - يا سادة - كيف استطعتم أن تقرنوا فلاح مصر بمعبوداتكم، فتجعلوا منه إلهاً تسجدون له من دون الله؟ نبئونا كيف استطاع قساوستكم وكهنتكم أن يلقوا في روع العامة أن التعليم شرط للنجاة من عذاب الآخرة، وأن (ازوريس) العظيم الجبار لن يرضى أن يصطحب في زُورقه المقدس نفساً أمية جاهلة لا تستطيع أن تقرأ كتاب الموقى أو تذوق مواعظ (فناح حوتب) العالم الحكيم.

عرفونا كيف كان ذوو اليسار من قومكم يرعون أبناء الفلاحين، ويؤوونهم في مساكنهم، ويقومون بنفقات تعليمهم في تلك المعابد المظلمة الرهيبة، ليتخذوا منهم بعد ذلك خدماً لبيوتهم، وزراعاً في حقولهم، وأمناء لمخازنهم.

تحركوا - يا سادة - من نواويسكم، وانظروا ماذا صنع الدهر بمصركم العزيزة الغالية، التي حرصتم كل الحرص على أن تكتبوها لها صفحة من الخلود، لا يطاؤها الزمن، ولا تنال منها صروفه وأحداثه. هل دَرَيْتُمْ أن صوتاً سيرتفع بعد أربعين قرناً بجوار مقابركم المقدسة ينادى في غير رهبة أو حياء بأن الفلاح المصري يجب أن يظل أمياً جاهلاً، لأنه ناعم بجهالته، سعيد بأميته؟ ترى لو ارتفع مثل هذا الصوت في أيامكم المجيدة السعيدة ماذا كنتم صانعين بصاحبيه وسامعيه، والآخذين به، والعاملين عليه؟

عقوا - سادة مصر - لقد غفرتُم لأهل هذا البلد كثيراً من الذنوب والسيئات التي تَجَنَّوْا بها على أشخاصكم المقدسة، وتاريخكم الخالد. غفرتُم لهم أن يتركوا الغرباء عنكم وعن أرضكم. أهليكم يعيشون في ماء هذا النيل المقدس، الذي كنتم تحرّمونه على غير أهل مصر، وتحرّصون على ألا يمسه إلا المطهرون، غفرتُم لهم أن يدعوا تلك اليد الأجنبية تنتهك حرّمت مقابرهم، وتعبث بجسومكم وجسوم

نسائكم وإمائكم تعرضها للمارة والسائحين يتفككون بهرآكم . غفرتم لهم هذا ،
وعفوتهم عن كثير مثله . فهل تغفرون اليوم لفريق من أبنائكم يأبون إلا إذلال
الفلاح واستعباده ؟

من لي بهذا الصوت القوي الرهيب صوت (لوتر) الذي كانت ترجع صداه
آفاق أوروبا وهو ينادى بأن التعليم فرض على كل انسان ليكون عونته في فهم الدين
على وجهه الحق ، وتخليص روحه من ترهات الكنيسة وأباطيلها .

ألا رعى الله جدث ذلك المربي العظيم (قسيس مورافيا) الذي طالما نادى
بأن التعليم حق لكل انسان ، لأنه انسان بغض النظر عن مكانته وطبقته وثروته
وجنسه ؛ ولكم أهلب بحكومات القرن السابع عشر أن تغنى بتعليم أفرادها حتى
لا يكونوا في كل انقلاب اجتماعي أو سياسي كالحمر المستنفرة ، يتبعون أول ناعق ،
ويسرون وراء كل ضال .

ومن منا لا يذكر هذا المصلح الاجتماعي العظيم (باستالوتزى) ، الذي ضحى
بكل ما يملك من مال ونسب في سبيل تعليم الفقراء من أبناء الفلاحين ، فجعل منهم
رجالا مثقفين ، يدركون ما لهم من حقوق ، وما عليهم من واجبات . أنصت
إليه وهو يقول : « خير خدمة يقدمها المرء لقومه ووطنه هي أن يعلم الفقراء كيف
يعتمدون على أنفسهم » . أين هؤلاء وأمثالهم ، بل أين دعاة الديمقراطية ورسل
الانسانية الذين نادوا وما يزالون ينادون بأن التعليم حق الفرد على الحكومة أو
المجتمع ، وأنه لا يقل شأننا عن حق الحياة ، وحق الملك ، بل لقد أصبح في حياتنا
الراهنة من الحقوق الطبيعية الأولية ، كالماكل والمشرب والكساء .

أين هؤلاء وأولئك ليسمعوا السيد المحترم يقوم بيننا فليسكر من تعليم
الفلاحين وينذرنا في ذلك بالويل والثبور ، وعظائم الأمور .

أصدقائي :

لقد سمعنا اليوم حديثا عجبا ، وكان من الهتين علينا أن نجعله دبر آذاننا ،
بل تحت أقدامنا ، لو لم يكن صادرا عن شيخ عالم مثقف مجرب ، قضى شطرا من
شبابه في أوربة ورأى بعينه هاتين ، كيف يعنى القوم هناك بتعليم فلاحهم وصناعهم ،

وكيف يحنون من ذلك ثمارا شبيهة . ولكن أدهى من هذا وأمر أن يؤكد لنا سعادة الباشا المخترم أن هذا رأى الذى أبداه اليوم ليس خاصا به ، ولا مقصورا عليه ، وإنما هو رأى فريق من الناس يدعون أنهم يتكلمون باسم الفلاح ، ويدافعون عن مصلحته .

لقد كنا نحسب أن هذا الصراع الدائم بين القوة والضعف ، بين الغنى والفقر ، بين الديمقراطية والارستقراطية ، قد انتهى أمره فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، عصر المدنية والنور ، ولكن يلوح أننا كنا واهمين ، فإن هذا الجلاذ ما يزال ناشبا بين الفلاحين وأصحاب الأراضى فى مصر ، وعلى ضفاف هذا النيل الوادع . وهل أناكم — أيها السادة — نبأ ذلك السائح الأمريكى ، الذى راعه أن يرى مدينة القاهرة قد خلعت ذلك الرداء العتيق ، وأخذت بنصيب من المدنية جدد شبابها ، وزاد فى روائها ، فأدركته من ذلك سوزة ، وأخذته عزة ، ومضى إلى سفيره محتجاً بأنه إنما أنفق فى رحلته ما أنفق ، ولقى فى سفره من النصب ما لقى ، ليرى القاهرة بلدا شرقيا كما كانت ، وكما يجب أن تكون كل مدينة شرقية . أما الآن وقد أخذت زخرفها وازينت ، فليس فيها ما يشوق النفس ، ويمتج الخيال . فهل ترون هناك كبير فرق بين موقف الباشا المخترم من الفلاح ، وموقف ذلك الأمريكى الأحمق من القاهرة وسكان القاهرة ؟ . حقا إن هؤلاء السادة من الأغنياء إنما يستطيعون أن يلهوا بالفلاح ، ويجدوا فى حياته ما يشوقهم ويمتعهم إذا ظل كما هو الآن شقيا تاعسا جاهلا غنيا ، أما ذلك اليوم الذى يصبح فيه هذا المخلوق ذا كرامة وإباء وعزة ، فهو ولا شك يوم عسير ، على الموسرين غير يسير .

أجل . سيكون لدينا بعد عشرات من السنين فلاح جديد ، وسيكون له مع هؤلاء السادة شأن غير شأنه اليوم ، نحن أول من يدرك هذا . ويؤمن به . سيكون فلاحنا الجديد عزيز الجانب ، أبى النفس ، سيكون حريصا على حقوقه ، حرصه على القيام بواجباته ، سيكون شاعرا بأنه مخلوق مستقل ، له إرادة ، وفيه قوة ، وسيأبى فلاحنا الجديد أن يسرح مع الهمل أو يُحشَر فى زمرة البهائم . وسيعرف فوق هذا كيف يحطم تلك الأغلال التى يود أصدقائنا الأغنياء أن يظل مكبلا

بها، راسفا فيها . ويؤمئذ يدرك سعادة الباشا ومن لف لفه ، وذهب مذهبه ،
أن الفلاح لا بد أن ينصف ، وأن يقام له وزن . ماداموا يعيشون على حسابه ،
ويفضل قوة ذراعه وعرق جبينه .

نحن لا نلومكم — أيها السادة — فيما تذهبون إليه ، ولكن نرتى لكم ، فأنتم
والله أحق بالثناء منكم باللوم . إنكم لتدركون أكثر مما ندرك أن تعليم الفلاح
سيضطركم إلى تغيير تلك الأساليب التي ألفتوها حتى اليوم في معاملته ، سيرغمكم
على أن تتبعوا طرائق أرقق وأعدل ، ستفقدون شيئا من هذا الجاه العريض ،
والسلطان الواسع ، ستحرمون لذة الاستمتاع بهذا النفوذ المطلق الذي تبسطونه
اليوم على عمالكم وفلاحكم ، ستحرمون كل هذا ، وستحرمون مع هذا شيئا من
التقديس لذواتكم وأشخاصكم ، أى شئ أشق على النفس وأوجع للقلب مما تُحرمون ؟
ليس عجيبا أن تكونوا أعداء لكل إصلاح حق يتناول الفلاح ، بل العجيب
ألا تكونوا كذلك . كيف تنتظر منكم أن تعينوا بإرادتكم وباختياركم على تعليم
الفلاح ، فوقظوه من سباته ، وتنبهوه من غفلته ؟ أنتم لا تستطيعون أن تنسوا
ذواتكم ومصالحكم . ما أشبهكم برجل يعيش في غرفة من المَرَايا فحشا ولَّى وجهه
لا يرى إلا نفسه . أنتم لا ترون في الفلاح سوى مخلوق تافه حقير ، سخر لكم ،
فلكي تنالوا أطيب طعام على موائدكم يجب أن يموت الفلاح جوعا ، ولكي تستمتعوا
بلذيق الشراب يجب أن يقتله الظمأ ، ولكي تخفوا إلى الأقصر كل شتاء ، وإلى
أوربا كل صيف ، يجب أن يكذب ويكدح في الهجير وفي الزمهرير ، ولكيلا يشعر
بأنه مهض الجناح أو مهضوم الحقوق يجب أن يظل — كما هو الآن — جاهلا أميا .
هذه هي الحقيقة التي تجيش بها نفوسكم مجردة من هذا الزخرف البراق
الفان . الذي تحاولون أن تخدعونا به ، لتلقوا في روعنا أنكم إنما تتبعون سعادة
الفلاح ، وتناضلون عن مصلحة الفلاحين .

ولكن العجب لكم — أيها السادة — حين تخوضون في المستقبل ، تنزعون
من جوفه المخاوف ، وتبلسون في طياته الثورات والمهالك ، وما أراكم والله
في هذا إلا ضالين أو مضلين ، من سواكم يعتقد أن التعليم أيا كان نوعه يولد

بين الناس الفتن ، ويربى الأحقاد ، وينبت السخائم ؟ ما كان التعليم لينتج شيئاً من هذا ، وإنما الذى يولده ويعين عليه ، بل يغرس شراً منه ، تلك الجهالة الجاهل ، والامية العمياء ، التى يتمرغ الفلاح الآن فى حمايتها ، والتى تأبون لمصلحتكم إلا أن يظل غارقاً فيها ، شقيماً بها . سلوا رجال الأمن ورجال الاحصاء ينبئوكم بأرقام حاسمة ، هى فوق كل نزاع أو جدل ، بأن الأمن لا يُستقر ، والطمانينة لا تسود ، إلا فى تلك البيئات الريفية ، التى أخذت من التعليم نصيباً موفوراً . بقى ذلك الخصام الذى تؤكدون لنا أنه لا محالة واقع فى الغد القريب بين الفلاح المتعلم وبينكم . وأنا فى الحق لا أدرى كيف تقع تبعة هذا الخصام على التعليم . هاكم بعض طوائف الصناع والعمال فى القاهرة وغيرها من المدن الكبيرة المصرية . فقد بدأ النزاع يخدم بينهم وبين أصحاب الأعمال على الأجور وساعات العمل ، مع أن صناع مصر وعمالها على ما نعلم من الجهل والغباء ، بل إن مكتب العمل فى وزارة الداخلية ليستطيع أن يؤكد لكم أن جهالة هؤلاء العمال هى التى تورت نيران العداوة ، وتزيد هذا الخلاف قوة وعنفاً . وليس ذلك بعجيب . فأنما الرجل الجاهل الضعيف الإرادة هو الذى يعمد فى شئونه إلى الخصام ، ويلجأ إلى القسوة والعنف ، ويخطط فيما له من حق ، وما عليه من واجب ، ويخطئ فى فهم الصلوات والعلاقات التى تربطه بغيره من الناس ، أبعد هذا تصرؤن على أن التعليم علة كل خصام إن وُجد ، وأن الجهالة لها الفضل فى منعه إن لم يُوجد ؟ يجب أن تدركوا - أيها السادة - أن لتلك الخصومات التى تقع هنا وفى أوروبا بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال عللاً وأسباباً ، ليس التعليم واحداً منها ، وإنما السيطرة الغشوم ، والاستبداد المطلق ، والشره القتال ، هى التى تغرس الضغائن ، وتولد سوء الظن بين الناس .

صدقونى - أيها الصحاب - أنكم لا شك مدركون بتعليم عمالكم أكثر مما تدركونه اليوم بجهالتهم وأميتهم ، فالفلاح المتعلم سيكون أرغى لمصالحكم ، وأحرص على أموالكم ، وأكثر إنتاجاً لغلاتكم ، وأبصر بترية ماشيتكم (١١ - صحيفة دار العلوم)

ودوا بكم ، وأقدر على استئصال العلل والآفات التي تلحق مزروعاتكم .
 وستجدون فيه من هذا كله رجلا تعتمدون عليه ، وصديقاً تثقون به ، وتركوا
 إليه . فأى خير يخبر بكم تعليم الفلاح ! وأى جزاء يُستغنى عليكم تعليم الفلاح !
 بل أية راحة وطمأنينة يُعقبها لكم تعليم الفلاح ! وبعد . فاعلموا - أيها
 السادة - أن نشر التعليم الإلزامى بين طبقات الفلاحين والصناع ، هو قضاء
 الطبيعة ، وحكم التطور ، وأن للطبيعة صوتاً أقوى وأروع من أصواتكم ، وأن
 للتطور نفوذاً فوق نفوذكم ، وأن للحياة ناموساً لا يشذ من أجل مصالحكم ،
 فهو لا بد بالغ مبلغه ، ومدرِك غايته ، فليس في وسعكم - (أية كانت ثروتكم
 ومنزلتكم) - أن تعكسوا دورة الفلك ، أو تؤخروا سير الزمن . فالفلاح لا بد
 أن ينال قسطه من التعليم ، وأن يستمتع بنصيبه من الحياة ، هذا حكم الطبيعة
 الذي يجب عليكم وعلينا أن نسلم به ، ونخضع له . هداًنا الله وإياكم سبل الرشاد .
 وقد انتهى العضو المحترم من خطبته في منتصف الساعة السابعة ، وقد جن
 الليل ، وساد الظلام ؛ فقررت الجماعة أرجاء النقاش في هذين الخطابين إلى الجلسة
 المقبلة ،

(صورة طبق الأصل)

زكى المهندس

نظر بعض الحكماء إلى رجل يرمى هدفاً وسهامه تذهب يمينا وشمالا ، فقعده
 في وجه الهدف ؛ فقليل له في ذلك ، فقال : لم أر موضعاً أسلم منه .